سورة المطففين

مكية، وهي سبع وثلاثون آية مع البسملة

هناك اختلاف حول زمن نزول هذه السورة، فيرى بعض المفسرين أن آياتها الست الأولى.. أي حتى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مدَنية، بينما يرى البعض الآخر أنها كلها مدَنية (الدر المنثور، والإتقان). غير أنها مكية عند معظم المفسرين. وهذا هو المسجل في المصاحف المطبوعة في بلادنا.

اللافت للنظر أن الباحثين الأوروبيين الذين ناقشوا هذا الموضوع قد اعتبروا هذه السورة مكية، وذلك خلافًا للقواعد التي وضعوها لبحث هذا الموضوع، فكان من المفروض أن يعتبروها مدَنية بحسب اتجاههم المعادي للقرآن، خاصة وقد اعتبرها بعض المفسرين مدَنية، ولكن من التصرف الرباني الغريب أنهم اعتبروها مكية، بل من أوائل ما نزل بمكة. فالبروفيسور الألماني نولدكه والسير وليام موير كلاهما قال إنها نزلت قبل الهجرة بأربع سنوات تقريبا (تفسير "ويري" للقرآن الكريم). والحق أن هذا هو الرأي الصائب؛ فإنها سورة مكية ومن أوائل ما نزل في مكة.

هناك أسس مختلفة وُضعتْ لتحديد المكي والمدني في سور القرآن، أوّلُها: الروايات التي رواها المسلمون المعاصرون لنـــزول القرآن، فقالوا إن السورة الفلانية نزلت في وقت كذا حسب علمهم. وثانيها: أحيانًا لا يذكرون هذه الروايات بناء على علمهم، بل بناء على اجتهادهم، مثلاً يقولون ذهبنا إلى المدينة في وقت كذا، فقُرئت علينا هذه السورة عندها، ولذا فهي مدَنية. مع أن من الممكن أن تكون السورة قد نزلت في الفترة المكية ولكنهم سمعوها عندئذ. وثالثها: بناء على الأحداث المذكورة فيها. ورابعها: بناءً على بعض كلماتها المعينة، فيقولون مثلا: هذه الكلمات كانت تُستعمل في الفترة المكية. وخامسها: يعتبر المستشرقون السورة مدَنية إذا كانت مواضيعها مفصلة، لأنهم يرون أن القضايا التفصيلية قد

وردت في السور المدَنية. سادسها: يحددون زمن السورة من أسلوب بيانها، فمثلاً إذا كانت طويلة الآيات اعتبروها مدَنية، وإذا كانت قصيرة الآيات اعتبروها مكية. وسابعها: إذا ذُكر اليهود في سورة اعتبرها المستشرقون مدَنية. وثامنها: إذا جاء في سورة حُكم شديد بحق الكفار قالوا إنها مدنية.

والحق أن الأساس الأول من هذه الأسس هو القطعي اليقيني، أما باقيها فكلها ظنية، ولا يتورع المستشرقون في استعمالها سلاحًا للهجوم على الإسلام. إن بعض هذه الأسس باطل بصورة قاطعة، ولكن ليس هذا مجال هذا البحث. ثم إن المستشرقين يخالفون هذه الأسس أيضًا إذا ما كان لهم غرض معين يريدون تحقيقه أحيانا، كما أشرتُ – وسأظل أشير– إلى ذلك أثناء تفسيري في أماكن مختلفة.

الواقع أن المستشرقين يريدون من اللجوء إلى بعض هذه القواعد أن يُظهروا أن محمدا قد تعلّم من اليهود والنصارى ما ذكره في القرآن الكريم. فمثلاً إذا لم ترد تعاليم اليهود والنصارى مفصلةً في السور المكية، قالوا لقد ثبت من هذا أن هذه التعاليم إنما ذُكرت في السور المدنية لأن محمدًا تعلّمَها بمخالطة اليهود والنصارى في المدينة. والحق أن المفسرين المسلمين الذين يبنون رأيهم في هذه الأمور على هذه الأسس والأدلة الضعيفة إنما يقوّون أيدي المسيحية من حيث لا يدرون. مع أن هذه الأدلة والمبادئ ليست إلا اجتهادية فقط، وتحديد الأحداث التاريخية بناء على الاجتهاد طريق خاطئ تمامًا؛ إذ لا يصح في مثل هذه القضايا إلا الشهادة التاريخية القطعية أو القياس الداخلي للحادث بشرط أن يكون سياق القرآن مؤيدا لذلك.

وهذا الموضوع طويل جدا لا يمكن الإحاطة به الآن، وإنما نبهتُ إليه ضمنيا، إذ يقتضي هذا الموضوع أن يؤلَّف حوله كتيّب مستقل. ففيما يتعلق بكون السورة مكية أو مدنية، فإننا نقبل الروايات الصحيحة والبحث المدعوم بالتاريخ، أما الأمور الاجتهادية البحتة منها فقد وضع هؤلاء بصددها قواعد خاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة مما يستغلها أعداء الإسلام استغلالا مشينا، ولسنا لنقبل مثل هذه الأمور أبدا. على أية حال، وكما قلت فإن هذا الموضوع يتطلب أن يؤلَّف حوله كتيب مستقل، يبحث في هذا الموضوع ويناقشه بالتفصيل، ويبين خطأ استدلالاتهم بصدد

ترتيب القرآن الكريم، وكيف يمكن تدارك هذه العيوب. ندعو الله تعالى أن يوفق أحدا من جماعتنا، أو يوفقني أنا، لتأليف كتيّب مستقل حول هذا الموضوع، لأنه ضروري جدًّا. الواقع أن كتاب "الإتقان" للإمام السيوطي هو أول محاولة في هذا المجال، ولكن قد وقعت فيه بعض الأخطاء. وهناك حاجة ماسة أن يُكتب كتاب الإتقان الحقيقي، لأن الإتقان معناه القول المحكم القوي، ولكن السيوطي أورد في إتقانه بعض الأمور الضعيفة خطأً كما قلتُ. فلا بد من تأليف كتاب "الإتقان" بحيث يكون متقنا بالفعل، ويتناول هذه القضية على أسس سليمة، ويفنِّد الأمور الخاطئة.

ترابُطها بما قبلها:

لهذه السورة صلتان بما قبلها، صلة قريبة وصلة بعيدة. إن خبرتي تؤكد أن كل سورة –تقريبا– وثيقة الصلة بغيرها من السور، كما أن لكل سورة صلتين بالسور الأخرى: صلة قريبة وصلة بعيدة.. أي أن هناك ما يربطها بالآيات الأخيرة من السورة السابقة، وهناك ما يربطها بموضوع السور السابقة. ثم إن هذه الصلة من النوع الثاني تنقسم إلى قسمين، صلة تربط السورة بموضوع السورة السابقة أو التي قبلها بحيث تكون كل هذه السور حلقات من سلسلة موضوع واحد، وأحيانًا هذه الصلةُ تربط السورةَ بست أو سبع أو عشر سور سابقة. والحمد الله على أنني أول من فهم هذا الموضوع إلى حد ما. لقد علمتُ بفضله تعالى ما بين سورة وأخرى من صلة قريبة، وما يربط عدة سور من حيث الموضوع المذكور فيها، ومع ذلك عندي انطباع أنّ بيْن السور علاقة يمكن أن نسميها بعيدة وأبعدَ، ولكن لم أجد فرصة لحلّ هذا الموضوع بصورة كاملة لكثرة مشاغلي، ولا أرى أني سأتمكن من ذلك في المستقبل لتكاثر أعمالي باستمرار، فأضع أمامكم اقتراحا لحل هذا الموضوع.

في رأيي أنّ على المرء أنْ يستكتب سور القرآن على أوراق منفصلة ويعلقها في غرفة كما تُعلَّق الخرائط، وينظر إليها بتدبر كلما وجد فرصة، وهكذا سيطّلع حتمًا على ما يوجد بينها من رابط. وإذا تمكن من الاطلاع على الرابط الموجود بين

مجموعة من السور، فيُلعمِلْ فكره على مجموعة أخرى، وهكذا دواليك. لو اتبع هذه الطريقة مَن عنده فرصة وشوق للتدبر في القرآن الكريم لانتفع بها كثيرا.

والصلة القريبة لسورة المطفّفين بالتي قبلها تكمن في أن الله قال في آخر سورة الانفطار ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، وهذا يعني أن الله تعالى قد تحدث هنا عن المحاسبة، مبيّنًا أن هذه الخسارة لن يتكبدها إلا أنتم. بينما قال الله الآن في هذه السورة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ليبين أن مَن كان عليه حساب فلْيُسَوِّه بلا نقصان أو تخسير. وهذا هو الأمر الذي قد حثّ عليه المسيح عليه السلام، ولكن المسيحيين أهملوه، حيث قال عليه السلام: "طُوبَى للرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ" (مَتَّى٥ :٧)، وقال: "إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاّتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاّتِهِمْ، لا يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاّتِكُمْ" (مَتَّى١٤:٦-١٥). وهذه هي الحقيقة التي بينها الله هنا في القرآن الكريم، ونبّه المسيحيين أنهم ماثلون أمام الله تعالى، فإذا أرادوا تجنُّبَ الخسران يوم القيامة، فعليهم ألا يبخسوا الناس حقوقهم.

الغريب أن المسيحيين أخذوا يقولون نستطيع أن نرحم، ولكن الله لا يستطيع أن يرحم الناس، مع أن المسيح عليه السلام قد نبههم هنا أن الله تعالى سيرحمكم بسبب رحمتكم بالناس، حيث يقول: ارحموا الناس حتى يرحمكم أبوكم السماوي. وهذا يعني أننا بحاجة إلى الرحمة بالناس لكي يرحمنا ربنا، ولكن المسيحية الحالية تقول إن الناس يمكن أن يرحموا، ولكن الله غير قادر على أن يرحم الناس. كم هو متعارض هذا التعليم مع تعليم المسيح عليه السلام!

المهم أن الله تعالى يقول للمسيحيين هنا في القرآن الكريم: يجب أن تتذكروا أنكم تتعاملون مع الله تعالى، فإذا أردتم أن يعاملكم الله برفق ولطف، فعاملوا عباده برفق ولطف. فقوله تعالى ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ يشير إلى معاملة الله مع الناس، وقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يشير إلى معاملة الناس مع الناس، حيث نبّه الله العباد أن عليهم أن لا يغشّوا في معاملتهم مع الناس، لكي يعاملهم الله برفق. إذًا فأواخر سورة الانفطار تؤكد قولاً للمسيح الناصري عليه السلام، أما أوائل سورة المطففين فتؤكد قولاً آخر له عليه السلام.

أما الصلة البعيدة لهذه السورة بالتي قبلها، فهي أن السورتين السابقتين تتحدثان عن المسيحية. والحق أن جزأين كبيرين من أعمال المسيحيين خطيران جدا؛ الجزء المتعلق بالدين، والجزء المتعلق بالشعوب الأخرى. وسوءُ أعمالهم فيما يتعلق بالدين ظاهر من أنهم يشركون بالله ويتخذون المسيح ابنًا لله ويقضون على وحدانية الله. وقد أُشير إلى الأمر نفسه في السورة السابقة في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.. أي كنا أخبرنا أن السماوات تكاد يتفطرن من شناعة شرك هؤلاء القوم، وها قد جاء وقته وقد انفطرت السماء فعلا لظلمهم العظيم. والجزء الثاني من أعمالهم يتعلق بتحالفاتهم وسوء معاملتهم مع الشعوب الأخرى كلها. فبعد أن نبّه الله تعالى في السورة الماضية إلى سوء أعمال المسيحيين الدينية فقد بيّن الآن في هذه السورة أن معاملتهم مع الشعوب الأخرى تكون سيئة جدا، حيث ينهبون خيراتها، وتكون معاهداتهم ومعاملاتهم ذات وجهين دوما، ستكون معاملاتهم فيما بينهم على عكس معاملاتهم مع الشعوب الأخرى. باختصار، إن التطفيف علامة بارزة للمسيحيين. ولن تجد لتحالفات الشعوب الأوروبية مثالا بين الأمم في التاريخ كله. إن هؤلاء ملحدون لا علاقة لهم بالمسيحية من حيث العقائد، ولكن كلما تعلّقَ الأمر بالمسيحية انحازوا إليها، وساندوها رغم كونهم ملحدين. فالألمان ملحدون، ولكنهم يعاملون المسيحيين على عكس ما يعاملون الأمم الأخرى؛ يصبّون أقسى الفظائع على اليهود، ولكن يعاملون المسيحيين برفق. والحال ذاته بالنسبة إلى الإنجليز والأمريكان، فليس عندهم أي دين في الحقيقة، ولكنهم لا يطيقون اندثار اسم المسيحية. فمثلا في هذه الحرب الجارية يدفعون المسلمين والهندوس إلى المعارك ليُقتَلوا ويمزَّقوا، ويقولون إننا نريد إقامة الحضارة المسيحية، مع أنه ليس هنالك شيء اسمه الحضارة المسيحية. هناك حضارة معاصرة، ولا علاقة للمسيحية بها لا من قريب ولا من بعيد، ومع ذلك يقولون إن كل ما نقوم به إنما نقوم به لإقامة الحضارة المسيحية في العالم.

الغريب أن الشعوب المسيحية تظلم بعضها بعضا أيضا، ولكن نطاق هذا الظلم محدود جدا، وكأنهم جعلوا للظلم نطاقين، نطاق ظلم المسيحيين ونطاق ظلم غير

المسيحيين. وعندما يتعلق الأمر بظلم الشعوب الأخرى فكل الشعوب المسيحية تتحد ضدهم متناسية ما بينها من خلافات.

فالحق أن هؤلاء يرتكبون نوعين من الظلم، ظلم يتعلق بالله تعالى وظلم يتعلق بمخلوقه. وحيث إن ظلم المسيحيين بخلق الله كان جزءا آخر من أعمالهم لذلك قد جعل الله لذكره بابا منفصلا، أعني أنه تحدث عنه في سورة منفصلة، فكما أن الثورة المسيحية كانت هامة جدًّا بين ثورات الزمن الأخير، لذلك أنزل الله تعالى لذكرها سورة منفصلة، كذلك لما كان المسيحيون يرتكبون نوعين من الظلم العظيم، ظلم يتعلق بالله وظلم يتعلق بمخلوقه، فقد ذكر الله ظُلْمَهم به ﷻ في سورة الانفطار، وظُلْمَهم بالناس في سورة المطففين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

ويلٌ: كلمةُ عذاب. (الأقرب)

للمطففين: طفَّف المكيال: نقَصه. وطفَّف الوزنَ: نقَصه. وطفَّف على عياله: قتّر عليهم. وطفَّف على الرجل: أي أعطاه أقلّ مما أخذ منه. (الأقرب)

التفسير: إن هذه علامة مميزة للأوروبيين فإنهم لا مثيل لهم في اغتصاب حقوق الآخرين. إن المبدأ الأساس لسياستهم واقتصادهم هو غصب حقوق الشعوب الأخرى. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يذكر أمرًا قد ترك في نفسي وقعًا عميقا؛ حيث كان يقول: إن بعض الشعوب يَلقَون الذل بأخذ الربا، وبعضها بإعطاء الربا، ولكن أمر الشعب المسيحي غريب، فإنهم ينهبون الآخرين بأخذ الربا منهم، كما ينهبونهم بإعطاء الربا. فكان رضي الله عنه يقول: إن مثال نهبهم للناس بأخذ الربا واضح مما تعطي بنوكهم الناسَ من قروض، أما مثال نهبهم الناسَ بإعطاء الربا فهو ما فعلوه بالولاية الهندية "أوده". ولما قمتُ بتحرّي الأمر في المصادر التاريخية

وجدتُ قوله ﷺ صوابا تماما، فإنهم بالفعل نهبوا ولاية "أوده" بإعطاء الربا. لقد أعلنوا بين الناس أن من يضع نقوده في بنوكهم في مدينة "كولكتا" فسوف يعطونه ربحا كبيرا. فوضع الناس أموالهم في بنوكهم حتى إن النساء بِعْنَ حليهن ووضعن أموالهن في بنوكهم، فأعطوهم أرباحا كبيرة، فظنّ الناس أن الإنجليز خيّرون، إذ يعطون الأرباح بسخاء! ولما حصل الخلاف بين الإنجليز ومَلِكِ هذه الولاية، وزحف الجنود الإنجليز على عاصمته "لكهناو" فإن أمراء الملك أخفوا عنه كلية تقدُّمَ الجنود الإنجليز، لأنهم لما اقتربوا من العاصمة تلقّى جميع أمراء ولاية "أوده" إنذارا من الإنجليز أنهم لو فعلوا ضدهم أي شيء فسوف يجمّدون أموالهم المودعة في بنوكهم. فظلوا صامتين ولم يعلَم الملكُ بالجيش الإنجليزي إلا بعد أن طرق أبواب العاصمة. ويقول البعض إن الأمراء دعوا الملِك إلى مشاهدة الرقص لإغفاله عن زحف الإنجليز الذين داهموه وهو منهمك في مشاهدة الرقص. (حقائق الفرقان، سورة البقرة، قوله تعالى: الذين يأكلون الربا)

فالواقع أن الشعب المسيحي قد نهب الآخرين بأخذ المال وبإعطاء المال أيضا. إنهم المطففون حقًّا. ويجعلون حقهم حقّ فوق الآخرين في كل قضية. وإذا كان للآخرين حق عليهم فيعترضون ألف اعتراض عند أدائه. فالسؤال الذي يفرض نفسه: ما هو السبب الذي جعلهم لا يأبهون بالعالم كله؟ وما هي المبررات التي بسببها قد بسطوا سلطانهم على العالم؟ هم يتدخلون في الصين والهند، ويضغطون على أفغانستان، ويتدخلون في بخارى وتركستان الصينية والقفقاس وجورجيا، ويتصرفون في سياسات الدول العربية، ويتدخلون في معاملات تركيا، وقد استولوا على مصر والبلاد الإفريقية. ما ذنب الناس أنهم يُغلبون أمامهم في كل مكان، وهم يغلبون دوما؟ إنما سببه أن القوة بيدهم. مثلهم كمثل القرد الذي أكل قطعة الجبنة التي عثر عليها قطان؛ فيحكى أن قطَّين سرقا قطعة جبن، ثم اقتتلا عليها، فكان أحدهما يقول حصتي كذا والآخر يقول حصتي كذا. وأخيرا احتكما إلى قرد ليوزعها عليهما بعدل، فأخذ القرد ميزانا وقطع القطعة نصفين، ووضعهما في الكفتين، فلما حمل الميزان وجد فرقا بين الكفتين، فبدلا من أن يأخذ قطعة صغيرة

من الكفة الراجحة ويضعها في الكفة الناقصة وضع القطعة الكبيرة في فمه وأكل منها قطعة كبيرة، ثم وضعها في الكفة، فرجحت الكفة الأخرى، فأكل هذه المرة من القطعة الأخرى قطعة كبيرة، وهكذا ظل يأكل الجبنة مرة من هنا ومرة من هناك، حتى لم يبق من الجبنة إلا القليل، فأدرك القطان أنهما قد ارتكبا حماقة بوضع الجبنة في يد القرد، فإنه سيأكلها كلها هكذا، فقالا له: جناب القرد، أعطنا الآن الجبنة لنتقاسمها بأنفسنا، فقال القرد: لم يبق من الجبنة الآن إلا أُجرتي، فالتهمَ بقية الجبنة!

هذا هو مثال الأمم المسيحية؛ كلما يسوّون قضية قوم يقولون: حقنا فيها كذا، ويحاججون على حقهم هذا حتى يأكلوا البلد كله، والنتيجة النهائية أن الذين يطالبون بالحق يظلون محرومين منه، وهذه الأمم تنهب كل حقوقهم وتستولي على بلدهم.

ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

اكتالوا: اكتال منه واكتال عليه اكتيالا: أخَذ منه وتَولّى الكيلَ بنفسه. (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أنهم يأخذون المكيال بأيديهم عندما يأخذون حقهم من غيرهم، ويأخذونه وافيًا حسبما يحلو لهم.

التفسير: لقد استعمل الله تعالى هنا كلمات لبيان عيب للأمة المسيحية كان يمكن بيانه بغيرها من الكلمات أيضا. مثلا كان من الممكن أن يقول الله تعالى إنهم عندما يتاجرون يأخذون حقهم كاملا، ولكنه تعالى لم يقل هكذا بل قال ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، وذلك ليخبر أنهم يتخذون المعاملة كلها في أيديهم، ويكون لهم الخيار كله لاتخاذ القرار، سواء أكان عليهم أن يأخذوا حقهم أو أن يعطوا غيرهم حقوقهم. إن الأحداث اليوم تؤكد هذا النبأ. أيا كانت القضية فإن خيارها يكون في أيديهم. خذوا مثلا قضية

استقلال الهند، فمن المحال أن يجتمع الزعماء الهنود ويتخذوا قرار الاستقلال بالتشاور فيما بينهم. يقول الإنجليز يمكن أن تتشاوروا وتفكروا معا، ولكن ليس لكم إلا أن ترفعوا مطالبكم إلينا، ونحن الذين نختار منها ما نشاء ونرفض منها ما نشاء. هذا هو الأمر الذي بينه الله هنا أن هذه الأمة ستنال من الغلبة بحيث تحتفظ بالخيارات كلها سواء كان عليهم أن يؤدوا للناس حقوقهم أو يأخذوا منهم حقوقهم. في العالم للزبون حقّه وللتاجر حقه، ولكن هذا الشعب إذا كان زبونا فيقول للآخر لا خيار لك في الكيل، وسوف نتولى الكيل بأنفسنا. وإذا كان تاجرا فيقول للزبون أيضا: عليك أن تعطينا ما نريد ولن نأخذ أقل من ذلك. فيمتلكون كل الخيارات؛ خيار الأخذ وخيار العطاء، ولا يسمحون للآخرين بالتدخل في القضية. لقد استعمل الله هنا كلمة ﴿يَسْتَوْفُون﴾، ومعناها الأخذُ أخذًا وافيًا تامًّا (الأقرب). وهذا المعنى يدل في الظاهر على العدل، ولكن الواقع أن هذا لا يعني أنهم يستوفون الحق -أي ما هو حقهم- بل المراد أنهم يستوفون المطالبة.. أي أنهم لا يبرحون حتى يأخذوا ما يطالبون به، والدليل على ذلك أن الحديث هنا عن سيئاتهم لا عن حسناتهم ولا مدحهم. والسيئة أن يأخذوا أكثر ويعطوا أقلّ. فثبت أن ليس المراد من قوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أنهم يأخذون حقهم كاملا، بل المعنى أنهم يأخذون مطالبهم كاملة. نعم، يمكن على سبيل التنـــزل أن يراد هنا أنهم يأخذون حقهم كاملا على الدوام، ولا يتركون جزءًا من حقهم لأحد رحمة له. وهذا يعني أنهم يتصرفون كـــ "شايلوك"✪ الشهير. والدليل الآخر على ما قلتُه هو قول الله

✪ هو بطلُ مسرحية شيكسبير: "تاجر البندقية". تحكي المسرحية أن تاجرًا اسمه أنطونيو من أهالي البندقية اضطر للدَين من المرابي اليهودي الجشع "شايلوك"، فوافق أن يُقرِضه بشرط أنه إنْ لم يوفه حقه بعد سنة فله الحق باقتطاع كيلوغرامين لحمًا من جسده. لكن التاجر، خسر كل ما لديه، ولم يعد لديه ما يملك. وأكله الهم والغم، فأصبح هزيلاً، والمرابي يقف له على الأبواب يريد حقه. فرفع شكواه للحاكم وقرّر الحاكم تنفيذ الشرط. وكان للتاجر محام ذكي حضر قبيل الاقتصاص، ليدحض الشرط ويقوضه على رأس المرابي. كانت حجة المحامي بسيطة وقوية. قال إن الشرط لم ينصّ على الاقتطاع من كل أنحاء الجسد، ولا يوجد لدى موكلي كيلوين من اللحم في جهة

تعالى ﴿اكتالوا﴾، لأن الاكتيال يعني أن يأخذ المرء المكيال بيده لأخذ حقه ولا يدَع الآخر يكيل له. فهذه الكلمة أيضا دليل على أن هذه الأمة تأخذ حقها كما يحلو لها، ولا تدَع الآخر ليتصرف في القضية. فالواقع أن قصة "شايلوك" الشهير تنطبق على هذه الأمم المسيحية حق الانطباق، فإن كان لهم الحق على أحد طالبوه بقسوة غير مبالين بأي شيء، وإن كان عليهم الحق لأحد لجأوا إلى ألف عذر.

لقد سبق أن أخبرتُ أن "اكتال منه" و "اكتال عليه" بمعنى واحد؛ غير أن بعض علماء العربية فرّق بينهما، فقال الفرّاء النحوي الشهير إن قولهم اكتلتُ عليه يعني أخذتُ ما عليه كيلاً، أما اكتلتُ منه: فمعناه استوفيت منه كيلا. (روح المعاني)

وكأن في قولهم: "اكتال عليه" التركيز على الأخذ، وأما في قولهم: "اكتال منه" فالتركيز على الأخذ وافيًا.

باختصار، قد بين الله هنا أن هؤلاء القوم لا يبرحون حتى يأخذوا حقهم بالقدر الذي يرونه. الحق يؤخذ بطريقتين: أولاهما أن يأخذ المرء حقه بالتفاوض مع الطرف الآخر، حيث يستمع إلى أدلته، فيتحدد حقّه بالتشاور والتراضي بين الطرفين، وثانيتهما أن يأخذ حقه جبرًا وقهرًا حيث يقول للطرف الآخر حقي كذا وكذا، ولن أدَعك حتى آخذه منك. وقد أخبر الله تعالى هنا أن هذه الأمم المسيحية تكون مصابة بهذا الداء، حيث يقولون للآخرين عليكم أن تعطونا ما نطالبكم به، ثم يحتفظون بحق تحديد حقوقهم، ثم يحتفظون بالكيل بأيديهم ويأخذون من الآخرين ما يشاءون بإصرار وإلحاح. وهذا يعني أنهم لا يتركون تحديد مقدار حقهم للآخر، بل يحتفظون بهذا الخيار لأنفسهم، وبدلاً من أن يتحدد حقهم بتراضي الطرفين، يحددونه بأنفسهم كما يحلو لهم. وهذا يعني أنهم لا يعرفون الشفقة

واحدة فقط، والثاني أن الشرط يقتصر على اللحم ولم يأت ذكر للدم، فإن أي دم يهراق يجب أن يؤخذ ما يعادله من دم شايلوك. فخسر شايلوك دعواه كما خسر نقوده." (المترجم)

والرحمة على الآخرين، وأن تعاملاتهم التي يقومون بها باسم الحقّ تكون في الواقع ظلمًا وجورًا.

بعد فهم الأمر بهذا التفصيل، يسهل علينا الرد على الاعتراض الذي أثاره البعض قائلا: ليس في هذه الآية شيء من الذمّ، فلماذا بدأت هذه السورة بكلمة ﴿وَيْل﴾ فقال الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ – أي العذاب للمطففين الذين يأخذون حقهم كاملا – مع أنه ليس في أخذ الحق وافيا ما يدعو إلى الذمّ. فكما قلتُ إن تفسيري هذا يردّ على هذا الاعتراض، لأن إصرارَ المرء على تحديد حقه بنفسه، ثم لجوءَه إلى القسوة وعدم الرحمة عند أخذ حقه أمرٌ مذموم، والأمة التي لا تعرف الرحمة والشفقة على الآخرين تستحق الويل فعلاً.

ثم يجب أن نتذكر أيضًا أن حرف الجر (على) يأتي عادة بمعنى المخالفة، فلو اعتبرنا أن معنى إلحاق الإضرار مشمول في ﴿اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ فهذا محل الذمّ واللوم، إذ المراد عندها أنهم يأخذون من الناس بحيث يلحقون بهم الضرر، وهكذا جاز استعمال كلمة (الويل) في حقهم.

وهنا ينشأ اعتراض وهو: إذا كانت (على) هنا بمعنى المخالفة، فما معنى يستوفون إذن؟ الجواب أن قوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ عندها يعني أنهم يأخذون حقهم وافيًا بحسب أهوائهم وليس بحسب الواقع. فمثلا إذا كان الطرف الآخر يرى أن حقهم كيلوغرامان، فلن يرضوا بأخذ كيلوغرامين فقط، بل سيأخذون ثلاثة كيلوغرامات مثلا أو أكثر. إذًا فقوله تعالى ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني أنهم يستوفون كما يحلو لهم، أو أنهم يستوفون حسب مطالبتهم. وهكذا فإن لفظ (يستوفون) لا يتعارض مع مفهوم (على) وإنما يطابقه ويؤكده.

وقال البعض إن حرف (على) ليس متعلقا بـــ (اكتالوا)، بل هو متعلق بـــ (يستوفون).. والمعنى أنهم يلجأون إلى الاستيفاء ضد الآخرين عند أخذهم حقهم، أي يستوفون حقهم بحيث يضرون الآخرين، والتقدير كالآتي: إذا اكتالوا يستوفون على الناس، أي أنهم يأخذونه كاملا بحسب أهوائهم ملحقين الضرر بالطرف الآخر. فكأنه استيفاء في حقهم، ولكنه هضم لحقوق الآخرين.

لقد بينتُ من قبل أن اللغويين قالوا إنه لا فرق بين "اكتال منه" و"اكتال عليه" من حيث المعنى، ولكن المفسرين قالوا: إذًا، فلماذا قال الله ﴿اكْتَالُوا عَلَى﴾ ولم يقل (اكتالوا من)؟ لقد ذكرت من قبل أن الفراء يرى أنه قد استُعمل حرف (على) واستُغنيَ عن حرف (من)، وجيءَ مكانه بكلمة (يستوفون)، لأنك إذا قلت (اكتلت منه) فتعني استوفيت منه كيلاً. كأنه يرى أنّ كلاً من حرفَي الجر (من) و(على) قد استُعمل هنا في الواقع، إذ إن ﴿يستوفون﴾ ينوب عن (من)، وأما حرف (على) فهو مذكور في الظاهر كما ترى.

لا شك أن ما قاله الفراء يجيب على اعتراض المفسرين، ولكنه يبدو خلاف المحاورة القرآنية، لأن التدبر في القرآن يبين لنا أنه قد فرّق بين حرف (من) و (على).. وأن كُلاًّ منهما يفيد معنى مختلفا. فقال الله على لسان إخوة يوسف لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(يوسف:٦٤)، بينما قال في موضع آخر ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾(يوسف: ٨٩)، مما يبين أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكيلوا الكيل بأنفسهم، بل كال لهم غيرهم. وكذلك في القرآن قول يوسف ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾(يوسف:٦٠). لقد تبين من هنا أن يوسف عليه السلام هو الذي قام بالاكتيال لإخوته ، ولم يكيلوا الغلال بأنفسهم، ولكنهم مع ذلك يقولون لأبيهم (نكتل)، مما يعني أن قول بعض أهل اللغة إن الاكتيال يعني كيل المرءِ الشيءَ بأخذه المكيالَ بيده قولٌ باطلٌ؛ إذ ورد قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ من ناحية، ومن ناحية أخرى يعترفون أنهم لم يتولوا الكيل بأنفسهم، بل كان يوسف يكيل لهم. ثم إن يوسف نفسه يقول ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن قولهم: "اكتال منه" يفيد مفهومين؛ أي أخذ الكيل بنفسه أو بيد غيره، أما قولهم: "اكتال عليه" فيعني كال بنفسه بتولي المكيال بنفسه، لأن حرف (على) يفيد معنى المخالفة.

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

كالوهم: كالَ الطعامَ وغيرَه، وأكثرُ استعماله في الطعام: حقَّق كميّتَه أو مقدارَه بواسطة آلة معدَّة لذلك كالصاع والإرْدَب والذراع ونحو ذلك. (الأقرب)

فالكيل يعني تحديد مقدار الشيء سواء بالحجم أو بالطول أو بالوزن. ولما كان القرآن الكريم قد أضاف هنا كلمة ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾، فعلينا أن نفصل الوزن عن الكيل، فالكيل سيعني تحديد حجم الشيء بالصاع أو طوله بالمتر مثلاً.

كذلك يقول أهل اللغة: "وقد يتعدى لمفعولين، فيقال: كلتُ زيدًا الطعامَ، وقد تدخل اللام على المفعول الأول فيقال: كلتُ لزيدٍ الطعامَ. (ويأتي الكيل للوزن أيضًا) فيقال: كال الصيرفُ الدراهمَ: أي وزنها. (ثم يتوسعون في معنى الكيل فيقولون) كال الشيءَ بالشيء: قاسه. وكلتُ فلانا بفلان: أي قسْتُه به. وكال الفرسَ بغيره: قاسه به في الجري (الأقرب).. وهذا يعني أن الكيل يُستعمل للتقدير المعنوي أيضا على وجه الاستعارة، علاوة على الكيل والوزن الماديين.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن هؤلاء القوم إذا أعطوا قومًا بالكيل أو بالوزن ألحقوا بهم الخسارة دائما.. أي أنهم يتظاهرون للآخرين أنهم يعطونهم ما يستحقون وافيًا إذ يعطونهم بالمكيال والميزان، والواقع أنهم يربحون ويضرّون الآخرين.

وهذا العيب يوجد في الأمم المسيحية بوجه خاص، حيث ينهبون الشعوب الأخرى بالوزن وبالكيل أيضًا. لقد غلبت هذه الشعوب من خلال التجارة في الواقع، وهم ماكرون جدا فيها. لا يغشّ ١% من الأوروبيين بل ١ من الألف منهم في التجارة الفردية، بينما تجد ٩٩% من الآسيويين يغشّون في التجارة الفردية، بل ١٠٠% منهم يغشون فيها، ولربما تجد ١ من الألف منهم أمينًا في التجارة الفردية، فسيرة الآسيويين سيئة جدا في هذا الصدد على العموم. يكذبون عند الكيل، ولا يهدأ لهم بال ما لم يغشّوا قليلا وما لم ينقصوا شيئا، ويبذلون جهدهم أن ينتفعوا ولو قليلا بغش الآخرين. فلا جرم أن نموذج الأوروبيين رائع فيما يتعلق بالتجارة الفردية. أما التجارة بين الدول فتنهب فيها هذه الأمم نهبًا لا حدود له. هناك أمثلة كثيرة على ذلك،

حيث أخذوا من الدول الأخرى ملايين الملايين من المال ليصنعوا لهم المدافع وغيرها من الأسلحة، ولكن المدافع والطائرات التي بعثوها لهم كانت رديئة. فلا شك أنه ليس هناك من يباريهم أمانةً في التجارة اليومية البسيطة، ولكن فيما يتعلق بالتجارات الكبيرة فينهبون نهبًا بلا حدود، ويدمرون البلاد تلو البلاد، ويُقحمون السياسة في التجارة. إنها ليست تجارة، وإنما هي سياسة يستولون بها على البلدان الأخرى. مثلاً لنفترض أن (أ) و (ب) بلدان أوروبيان متعاديان، ويرى (أ) أنه لو نشبت الحرب بينه وبين (ب) فلا بد أن البلد (ج) سيساعد (ب)، ولكن (ج) بحاجة إلى الأسلحة من (أ)، وفي هذه الحالة يخفض (أ) أسعار الأسلحة من أجل (ج) مكرًا وخداعا، ويبدي رضاه لصنع الأسلحة من أجله، ولكنه لن يصنع له أي شيء في وقته إلى أن تنشب الحرب بين (أ) و (ب)، فلا يستطيع (ج) مساعدة (ب) لعدم توفر الأسلحة عنده، وقد يسحقه (أ) سحقا.

وفيما يتعلق بالتجارات بين الدول فالأمم المسيحية تقوم بتطفيف هائل، وهذه السورة تتحدث عن عيبهم هذا بشكل خاص.

وهنا ينشأ سؤال آخر لا بد من الرد عليه، وهو أن الله تعالى قال في الآية السابقة ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، بينما قال هنا ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.. أعني أن الوزن قد ذُكر هنا إضافة الى الكيل، مع أن الكيل يشمل الوزن أيضا، كما ذكرنا عند شرح الكلمات، فما كانت هناك حاجة في الظاهر لإضافة ﴿وزنوهم﴾ إلى ﴿كالوهم﴾ لكون الكيل يشمل الوزن أيضا.

فلو قيل: قد استُعمل الكيل هنا بمعناه الأشهَر المعروف.. أي الكيل بدون الوزن، فيقال: في هذه الحالة، كان الواجب أن يُذكَر الوزن في الآية السابقة أيضا، ولكن الأمر ليس كذلك. كان المفروض أن تكون الآية السابقة هكذا: "الذين إذا اكتالوا واتزنوا على الناس يستوفون"، أو أن تكون الآية قيد التفسير خالية من الوزن هكذا: "وإذا كالوهم يخسرون".

لقد أثار الزجّاج هذا السؤال واكتفى بالرد عليه بقوله إن الكيل والوزن متقاربان ومتشاركان في المعنى، ولذلك اكتفى الله بذكر أحدهما لكون الآخَر مفهومًا تلقائيا، فالآية الأولى أيضا تعني: وإذا اكتالوا واتزنوا.

لا بأس بهذا الجواب، وهناك في القرآن الكريم أمثلة اكتفى فيها بذكر إحدى الكلمتين لكونهما متشاركتين ومتقاربتين معنى. فمثلا إذا أراد الله تعالى ذِكْرَ الحر والبرد معًا اكتفى بذكر أحدهما فقط، أو إذا أراد ذكر الشمس والقمر اكتفى بذكر الشمس فقط، لأن ذكر القمر متضمَّن في ذكرها، فصحيح أن إحدى الكلمتين المتقاربتين معنًى تُترَك أحيانا، ولكن هذا الجواب لا يشفي الغليل، لأن السؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا زاد الله تعالى هنا قوله ﴿أَو وَّزَنُوهم﴾ إلى قوله ﴿كالوهُم﴾؟ ولماذا لم يكتفِ بذكر الكيل فقط دون الوزن؟

الجواب أن خطر الخسارة في الكيل يكون قليلاً، ولكنه في الوزن يكون كبيرًا. يوجد في بلادنا أيضا مكاييل شتى مثل الصاع وبعض الأكواب والأواني بمقادير مختلفة، وإذا كال بها أحد ونقص الكيلَ، كان النقصان ضئيلا جدًّا، لأن الزبون يشاهد بعينه ما إذا كان البائع يملأُ المكيال جيدًا أم لا. أما الوزن فيمكن به التخسير إلى حد كبير. والماهر في فن التلاعب بالميزان قد يُخسِر من الكيلوغرام رُبْعَه دون أن يدرك الزبون ذلك مع أنه يرى، أما الصاع وغيره من المكاييل فلا يمكن للبائع التلاعب فيه بحيث يخسر من الكيلوغرام رُبْعَه. فلما كانت إمكانية التخسير بالميزان أكبر، اكتفى الله بذكر كلمة ﴿اكتالوا﴾ عند الحديث عن أخذ الأمة المسيحية حقها، ليبين أن هؤلاء القوم عندما يأخذون حقهم بالكيل فيأخذونه كاملا، وقد تضمَّن هذا الذكر أنهم ما داموا لا يطيقون خسارة بسيطة قد تكون بالكيل فكيف يطيقون خسارة كبيرة تكون بالوزن؟ فقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾.. وفُهِمَ منه أنه كيف يمكن أن يرضى بالخسارة الكبيرة الناتجة عن الوزن قومٌ لا يرضون بالخسارة القليلة الناتجة عن الكيل؟ أما قوله تعالى في الآية التالية ﴿وإذا كالوهم﴾ – أي أعطوهم بالكيل أقل مما يستحقون – فلا يثبت منه أنه يمكن أن يسلبوا الناس أكثر، لأنّ أحدًا إذا ألحق بغيره ضررًا قليلا فليس فيه دليل على أنه سيلحق به ضررا أكبر أيضًا، إذ من الممكن أن يخاف مرتكب إثم صغير من ارتكاب إثم أكبر. فلأن قوله تعالى ﴿كالوهم﴾ لا يكشف حقيقة هؤلاء القوم كل الكشف، فأضاف إليه كلمة ﴿أَو وَّزَنوهم﴾ ليبين أنهم إذا قدروا على إلحاق ضرر بسيط

بالناس ألحقوه، ولكنهم لا يتورعون عن إلحاق ضرر أفدح بهم أيضًا لو تمكنوا من ذلك.

فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يعني أن هؤلاء الأمم عندما يكون لهم حقّ على الآخرين فلا يطيقون عند استرداده أدنى خسارة، وإذا كان عليهم حقّ للآخرين، فيحاولون إلحاق الخسارة بهم ما أمكنهم. إذن، طبقًا للترتيب الطبيعي لهذه المعاني كان حذف (اتّزنوا) بعد كلمة (اكتالوا) بليغًا. أما حذف (وزنوا) بعد (كالوهم) فكان خلافا للبلاغة.

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٥ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٦

التفسير: أي أن هذه الشعوب يعيشون اليوم معًا في أمن، ويظنون أن ليس في الدنيا قوة تستطيع أن تضرّهم شيئا، ولكن سيأتي يوم يُبعَثون فيه بعْثًا من نوع جديد. علمًا أن قوله تعالى ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يمكن أن يراد به القيامة، وأيضًا الوقت الذي تظهر فيه نتائج هذه الفترة الأخيرة. والواقع أن لكل قوم فترةً ولكل فترةٍ قيامة.

لقد قال البعض أن قوله تعالى ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني لحساب يوم عظيم.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧

التفسير: ليس هناك أمة ازدهرت و لم يأت يوم حسابها، ولكن الغريب أن الأمم تظل غافلة عن يوم موتها وحسابها كما ينسى الأفراد موتهم. الواقع أنه ليس في الدنيا أمر يقيني وقطعي كالموت، ولكن الموت هو الذي قد نسيه الإنسان أكثر من أي شيء آخر. كل واحد يعلم أن أباه قد توفي أو جده قد توفي وأن أبا جده أيضًا قد مات، وكل إنسان يعرف كثيرًا من أقاربه قد ماتوا، وأن الباقين أيضا سيموتون في يوم من الأيام، ومع ذلك ينسى الموت أكثر من أي شيء آخر. ومن الغريب أيضًا أن كل أمة في الماضي فنيت وبادت، والأمم الموجودة اليوم أيضًا ستفنى غدا،

ومع ذلك تظل الأمم غافلة عن الموت أكثر من أي شيء آخر. لقد ركز القرآن الكريم على هذا الأمر تركيزًا كبيرًا، وقال مرارا وتكرارا: هل هناك أمة نجت من الموت؟ لو قمنا بالتحقيق من الناحية التاريخية لوجدنا أن ألف أمة على الأقل في التاريخ قد نالت من الغلبة ما جعل الناس يظنون أنها لن تُهزَم أبدًا. كما ظنت هذه الأمم المنتصرة نفسُها بسبب كبريائها أن الأمم السابقة تعرضت للانحطاط بعد الرقيّ ووقعت في الحضيض بعد العزّ، أما نحن فلا زوال لنا بعد هذا التقدم! ولكن ما حصل هو أن هذه الأمم المنتصرة دُمِّرت وبادت وانمحت في الأخير، ولم يبق لهم اسم ولا أثر في العالم. لذلك يقول الله تعالى هنا ألا يظن هؤلاء الأمم الغربية – الذين لا يرتدعون عن ظلم الناس، بل يصبُّون عليهم ظلما بعد ظلم، ويسلبون حقوق العباد باستمرار– أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين؟! أي ألم يفكروا أنهم سيُبعثون ليوم عظيم يومَ يُعرَضون على رب العالمين؟! وكأنه تعالى يقول: ألم يكن الآسيويون عبادا لي؟ ألم يكن الأفارقة عبادا لي؟ فلماذا صبّوا عليهم الظلم صبًّا؟ فيوم يأتي يوم البعث هذا فإن الله رب العالمين سيجعل هؤلاء الكبار صغارا والصغار كبارا. وقد أُشير إلى ذلك أيضا في قوله تعالى ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾(العاديات:١٠). والبعثرة تعني قَلْب الأرضِ وجَعْل عاليها سافلها، فالمراد أن الله تعالى سيبعثر يومئذ هذه الشعوب الحاكمة ويحرمها من عروشها، ويرفع الشعوبَ المقهورة على كرسي الحُكم.

الواقع أن ازدهار الأمم وزوالها ظاهرةٌ دوريّة؛ مثلها كمثل أخوين يتصارعان دومًا، فيصعد أحدهما على صدر الآخر.. وعندما يرى أبواهما أن هذا لا يترل عن صدر أخيه يجرّان رجله، فيصعد الآخر على صدره. كذلك فإن الله تعالى حين يرى أمةً تستغلّ غلبتها استغلالا مشينا، فإنه يجرّها من فوق كرسي الحكم ويضع زِمام المُلك في أيدي الشعوب المقهورة. لقد كانت في الدنيا شعوب طالت غلبتهم كثيرًا، أما المسيحية فلم تمضِ على غلبتها إلا ثلاثة قرون فقط، بينما استمرت غلبة المسلمين ألف سنة، ومع ذلك قد أصابهم الانحطاط في الأخير. ولذلك يقول الله تعالى لماذا لا يفكر هؤلاء القوم أن هناك بعثًا لهم، وسيأتي عليهم يوم يحاسبون فيه على ما

يفعلون. لقد استُعملت هنا كلمة ﴿يُبْعَثُونَ﴾ لأنه إذا جاء يوم بعث قوم فلا تظهر فيه نتيجة أعمال الأفراد فحسب، بل تظهر نتائج أعمال آبائهم أيضا. عندما تقوم أمة ضد أمة، فلا تحاسَب الأمة المغلوبة على أعمالها فحسب، بل يُنتقم منها بسبب تصرفات آبائها أيضا، وكأن أفراد تلك الأمة كلها يُبعَثون عندها ليقدموا حساب أعمالهم.

فالواقع أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى قوله ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾؛ حيث أخبر الله تعالى أن هذه الشعوب المسيحية الغربية تفرّق اليوم بين شرقي وغربي وأسود وأبيض وآسيوي وأوروبي، ولكن سيأتي يوم يقومون فيه للحساب أمام ربهم الذي هو رب العالمين، فيسألهم عن فظائعهم ويقول: لماذا أهنتم هؤلاء الناس واحتقرتموهم؟ ولماذا جعلتموهم مغلوبين مقهورين؟ إن الله ليس ربَّ شعبٍ معين، بل هو رب العالمين. إنه رب الآسيويين والأفارقة، ورب الصينيين ورب اليابانيين، ورب الإنجليز ورب الأمريكان أيضا، فلا يفرح أن يكون عباده تحت حكم أحد إلا الذي يتحلى بصفة الله رب العالمين، ويكون مظهرا كاملا لربوبيته سبحانه وتعالى. لا شك أن الحكومات المؤقتة قامت في الدنيا وزالت بعد فترات قصيرة، ولكن لا يحكم العالَم على أسس دائمة إلا الذين لا يطالبون الناس بأكثر من حقوقهم، كما يقولون للناس إن هذا الحُكم ليس لنا بل هو حكمكم أنتم. إن الأمة التي تهبّ في الدنيا بعاطفة خدمة الناس ولا تطالب بأكثر من حقوقها، هي التي ستكتب لها الحياة الأبدية، ولا يحتاج الناس إلى التمرد عليها.

لا يعني الحساب الإلهي أن الله تعالى يحاسب الناس مباشرة في الدنيا، بل الحق أنه سيتولى بنفسه حساب الناس يوم القيامة، أما في الدنيا فيقيم فردًا أو أمة من بين الناس لحسابهم، وهذا يكون بمنزلة الحساب من عنده تعالى.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

سِجِّين: السِّجّين: الدائمُ؛ الشديدُ. (الأقرب)

وقال البعض لا معنى للسجين لأنه لفظ غير عربي أصله سِجِلٌّ وقد بُدلّ تنوينه نونًا كما قال الله تعالى في موضع آخر ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾(الأنبياء:١٠٥)، ومعناه الكتابة؛ أو أن أصله سجّيل، وهو الحجارة غير المنحوتة، كما في قوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (روح المعاني، وفتح البيان)

ولكن استدلالهم هذا غير سليم، لأن العلماء الكبار كأمثال الفرّاء والزجّاج وأبي عبيدة قد بينوا معاني كلمة السجين، فكيف يا ترى بينوا معنى كلمة هي ليست عربية أصلاً، ثم دعموا هذه المعاني بضرب أمثلة من الشعر القديم. (روح المعاني، والقرطبي)

وبالفحص والإمعان نجد مشتقات أخرى من حروف (س ج ن) التي منها اشتُقَّ السجين؛ فيقال: سجَنه سجنًا: حبَسه في سجن، وسجَن الهمَّ: أضمرَه.. أخفاه (الأقرب). فما دامت هناك مشتقات أخرى للسجين، وما دام علماء العربية قالوا إن معناها الدائم أو الشديد، فالقول أنها ليست بكلمة عربية، بل هي أعجمية ضُمت إلى العربية لقولٌ باطل لا أساس له.

الحقيقة أن هذا خطأ من بعض المفسرين العرب، فعندما يرون كلمة لا تُستعمل في العربية عادة يظنون أنها غير عربية، مع أنها تكون عربية عند علماء اللغة الآخرين. وقد استغلّ المسيحيون خطأهم هذا في هذه الأيام وراحوا يطعنون في القرآن الكريم بأن فيه كلمات غير عربية، وبالتالي باطلٌ دعوى القرآن أنه ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. والحق أن طعنهم خلاف للعقل تماما حتى ولو سلّمنا جدلاً بوجود كلمات أجنبية في القرآن كما زعم بعض المفسرين؛ إذ ليست في الدنيا لغة تخلو تمامًا من كلمات

اللغات الأخرى. نعم، قد تخلو فقرة صغيرة من لغة ما من كلمة أجنبية، إلا أنه فيما يتعلق بالعبارات الطويلة فليس هناك لغة في هذا العصر إلا وتوجد في عباراتها الطويلة كلمات أجنبية. ففي التوراة كلمات من لغات أخرى أيضا، وفي "الفيدا" كتاب الهندوس كلمات من لغات أجنبية. هناك في التاريخ مثال واحد فقط لشخص ادعى عدم استعماله كلمة من لغة غير لغته في كتابه، وكان أديبا فذًّا وعالما شهيرا، ولكنه أيضا لم يستطع ذلك رغم أنه بذل كل ما في وسعه، فاضطر لاستعمال عشرات الكلمات الأجنبية، أعني الشاعر الفارسي فردوسي، الذي ادعى أنه سيكتب كتابه الشهير "شاه نامه" باللغة الفارسية الخالصة، ولكنه فشل في ذلك، إذ توجد في كتابه هذا عشرات الكلمات الأجنبية؛ بعضها من الفارسية الجديدة، وبعضها عربية، وبعضها من لغات أخرى.

الواقع أن من المستحيل أن تتطور أي لغة ولا أن تتحضر ما لم يختلط بها كلمات من لغات أخرى لكثرة اختلاط الناس، بل الحق أن بعض أهل اللغة يتوقون لنقل كلمة معينة إلى لغتهم، فتصبح جزءًا من لغتهم بالتدريج. فمثلا هناك كلمة (pukka) تُستعمل في اللغة الإنجليزية، مع أنها كلمة أردية (پكّا.. أي الناضج الصَّلْب القوي)، قد أُعجب الإنجليز بها لكثرة اختلاطهم بالناطقين بالأردية، فضمّوها إلى لغتهم. وهي موجودة في قواميسهم حيث ورد في شرحها أنها كلمة أردية نُقلت إلى الإنجليزية. ومثاله الآخر كلمة (بَكْواس) الأردية، فهي الأخرى قد أعجبت الإنجليز، فإذا غضب أحدهم على الآخر قال له: (don't buck).. أي اخرسْ ولا تهذِ. وهناك مئات الكلمات المنقولة إلى الإنجليزية من العربية أو الأردية، فمثلا إن كلمة (admiral) صورة مشوهة للكلمة العربية أمير البحر، فقد أخذ الإنجليز كلمة الأمير (admiral) وتركوا كلمة البحر. فالواقع أن في كل لغة كلمات من لغات أخرى، ولكن لا يقال إنها ليست من اللغة التي نُقلت إليها، كلا بل إنها تصبح جزءا من اللغة الثانية وتُعتبر منها لكثرة تداولها. فمثلا إذا استخدم أحدنا في الأردية كلمة إنجليزية متداولة بكثرة، فلا نقول إن لغته قد فسدت باستعماله هذه الكلمة الإنجليزية خلال الكلام، بل نقول إنه يتكلم باللغة الأردية

الفصيحة. نعم، لو أكثر المرء استعمال المفردات الأجنبية خاصة غير المتداولة منها فهذا محل اعتراض بلا شك. إن العربية أُم الألسنة، ولذلك توجد كثير من الكلمات العربية في اللغات الأخرى. كما أن كثرة اختلاط الناس فيما بينهم تعمل على نقل كلمات أو ألفاظ من كل لغة إلى أخرى، والعربية ليست مستثناة من هذه القاعدة؛ فإذا وُجدت كلمة أجنبية في العربية، فاستعمالها لن يجعل العربية غير فصيحة، كما لن يُعتبر الكلام الذي وردت فيه هذه الكلمة الأجنبية كلاما غير عربي. إن شكسبير مثلاً أديب إنجليزي شهير، وقد وردت في كتبه كلمات فرنسية كثيرة، فهل يجيز لنا هذا أن نقول إن لغته غير فصيحة. وبالمثل لو استخدم القرآن كلمة أجنبية قد استعملها العرب واستحسنوها، فهذا لا يقدح في كونه قرآنًا عربيا.

الواقع أن هذا الاعتراض مثال واضح للمعارضة الجنونية. لقد أثار بعض المنافقين في القديم هذا الاعتراض على القرآن الكريم، فراح المستشرقون يرددونه قائلين إن ادعاء القرآن أنه نزل بالعربية باطل لأن فيه كلمات غير عربية؛ ثم يقدم هؤلاء قائمة بهذه الكلمات. لا شك أن بعض هذه الكلمات ليست عربية ككلمة التوراة، فإنها ليست كلمة عربية. كما لا يمكن لمسلمٍ أن يدّعي أن كلمة جبريل عربية. لا شك أنها بشكلها الحالي ليست عربية. كذلك الحال لكلمات ميكائيل، وإسحاق، أو عيسى – وهي صورة معدّلة للكلمة الإنجليزية (JESUS) – فإننا لا ننكر أنها كلمات غير عربية، بل نقرّ أن في القرآن الكريم كلمات أجنبية؛ فإذا كان هؤلاء الطاعنون يبحثون في القرآن عن مثل هذه الكلمات ظانين أنهم يستطيعون بها الهجوم على القرآن والإسلام فإنهم يهدرون وقتهم في الحقيقة. وإذا كنا نستنكر ما يقولون، فإنما هو أن هناك كلمات عربية ولكنهم يعدّونها غير عربية على سبيل الإجحاف دونما دليل. نحن لا نقول أنه لا يوجد في القرآن الكريم أي كلمة غير عربية، إنما نتضايق من قولهم لأنهم يكذبون أو يبالغون أشد المبالغة في محاولتهم لأن يعتبروا الكلمات العربية أجنبية. هذا ما نعترض عليه، وإلا فنحن نقرّ أن في القرآن كلمات من لغات أخرى أيضا، وهذا ليس محل اعتراض عندنا بحال من الأحوال. فمن الكلمات التي يعتبرونها أجنبية إجحافًا وتحكُّمًا كلمة ﴿سجيل﴾، مع أنها كلمة

عربية عندنا، ولكنهم يعتبرونها غير عربية دونما دليل. وهذا ما نعترض عليه، وإلا فلو ثبت أن في القرآن ٥٠٠ لفظ أجنبي، ناهيك عن لفظ واحد، فسوف نقول: لا حرج في ذلك، لأن العرب ما داموا قد ضموا هذه الكلمات إلى لغتهم واستعملوها بكثرة، فوجودها في العربية بعد ذلك ليس محل اعتراض إطلاقا. فعلى سبيل المثال يذهب أحدنا إلى محطة القطار ويطلب من المسؤول التذكرة قائلا: أَعْطِنِي تِكت (TICKET)، أو يذهب بعضنا إلى المكتبة ويطلب من صاحبها قلمًا سائلا فيقول: أَعْطِنِي فونْتِنْ بِن (FOUNTAIN PEN). فكلمة "تكت" أو "فونتن بن" ليست أردية، ومع ذلك عندما يتكلم بها أحدنا يفهم الجميع أنه يتكلم الأردية وليس لغة أخرى.

إذن، فاستعمال الكلمات الأجنبية التي تلقى الرواج في لغة ما ليس محل اعتراض أبدا. كذلك الحال للكلمات الاصطلاحية، أو التي تكون ضرورية لإقامة الحجة على الآخرين، فاستعمالها في صورتها الأصلية ليس موضع اعتراض أبدا. ثم إن ذكر الأسماء الأجنبية بلغتها الأصلية ليس موضع طعن قطعا. فمثلا إذا كان اسم شخص هندوسي "كريشن جند"، فلن نذكر اسمه في لغة أخرى مترجمًا، بل نذكره كما هو، ولن نبالي بأنها كلمة أجنبية، ولن يقال بأننا نتحدث بلغة أخرى.

إذن فهذا الاعتراض الذي يثار ضد القرآن الكريم لغوٌ وباطل كلية، ولا سيما اعتراضهم على كلمة (سجيل)، فهو خطأٌ فاحش. فإنها كلمة عربية، وهي موجودة في القواميس، وتوجد لها اشتقاقات أخرى في العربية. إني لم أجد فرصة للبحث والتحقيق، وإلا فقد نجد إثبات ذلك في الاشتقاق الكبير. وعلى كل، فإن اعتبار كلمة (سجيل) غير عربية قول باطل تماما.

مرقوم: رقَم الكتابَ: أعجمَه وبيّنه (أي شكّله بالحركات). ورقَم الثوبَ: خطَّطَه وأعلمَه. وفلان يرقُم في الماء: يُضرَب مثلاً للحَذِق في الأمور (الأقرب).

وقال الضحّاك: ﴿مرقوم﴾ مختومٌ في لغة حِمْيَر، وأصلُ الرقم الكتابةُ. (فتح البيان)

التفسير: لقد أثار البعض هنا اعتراضا على كون كتاب الفجّار في كتاب مرقوم، حيث أخبر الله تعالى أولاً أن كتاب الفجار في سجين، ثم فسّر ﴿سجين﴾ بأنه

كتاب مرقوم؛ فكأنه قيل: إن كتاب الفجار في كتاب مرقوم. فقالوا: ما معنى هذه الجملة الغريبة؟ إنها غير مفهومة.

لقد أورد الزمخشري هذا السؤال في تفسيره ثم قال في الجواب: إن السجّين كتاب جامع، هو ديوان الشر دوّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة والمنافقين والفجار، وهو كتاب مسطور بَيِّنُ الكتابة، فالمعنى أن ما كُتب من أعمال الفجار مثبَتٌ في ذلك الديوان (الكشاف). فكأنه يعتبر كتاب الفجار بابًا من ذلك الديوان الذي يسمى سجينًا.

وقال الواحدي: كتاب مرقوم ليس تفسيرًا للسجين، لأن السجين ليس من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين، بل إن (كتاب مرقوم) بيان لـــما ذُكر في قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾، والتقدير: إن كتاب الفجار هو كتاب مرقوم. (فتح البيان). كأنه يعتبر قوله تعالى ﴿لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ جملة اعتراضية، والجملة الأصلية هي "إن كتاب الفجار كتاب مرقوم".

ولكن هذا غير صحيح، لأن (سجين) في هذه الحالة سيظل بلا تفسير، وهذا خلاف لأسلوب القرآن الكريم.

وأما آراء المفسرين في معنى ﴿سجين﴾ فهي كالآتي:

قال أحدهم: في قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، السجين صخرة كبيرة تحت الأرض السابعة، تُقلَب فيُجعَل تحتها كتاب الفجّار.

وقال غيره: السجين ليس صخرة، بل هو خدّ إبليس. فكلما مات كافر صعدت الملائكة بروحه إلى السماء، فتأبى أهل السماء قبولها، فيترلون بها إلى أسفل الأرض حيث السجين وهو خدُّ إبليس، فيُوضع كتابه تحت خدّه المنتفخ بسبب هذه السجلات الكثيرة. فكلما جاءته روح كافر أخذ سجل أعماله وضمّه إلى القائمة الموضوعة تحت خدّه ويستلقي مرة أخرى. (فتح البيان)

هناك روايات سخيفة أخرى ذكرها أصحاب التفاسير. يبدو أن اليهود كانوا يحكونها لبعض المسلمين السذّج الذين كانوا بدورهم يذكرونها للآخرين حتى إن بعض المفسرين سجلوها في تفاسيرهم. اليهود أعداء ألداء للإسلام ولا يصح أبدًا

سؤالهم عن معنى آية من القرآن الكريم، ومع ذلك كان هؤلاء السذج يذهبون إليهم ويسألونهم عن معانيها، فكانوا يحكون لهم على سبيل السخرية أقوالا سخيفة لا أساس لها. وفي التفاسير روايات مماثلة كثيرة ولكن لا أثر لها حتى في كتب اليهود، غير أن بعضها مسجلة في كتبهم؛ وهذا يعني أن بعض اليهود كانوا أمناء، فرووا للمسلمين ما في كتبهم كما هو، ولكن بعضهم كانوا يحكون للمسلمين الأباطيل، فكانوا لجهلهم يظنون أن هذا هو تفسير آيات القرآن. وقد ذكر "ابن كثير" أمرًا لطيفًا جدًّا بصدد هذه الروايات معلِّقًا على رواية كهذه فقال: إن هذه الرواية تماثل بعض الإسرائيليات المروية عن ابن عباس. فكان ابن عباس يسأل اليهود ظنًّا منه أنهم سيقولون ما عندهم، وكان يصدّق ما يقولون لحسن ظنه بهم. وكما قلت إن قوله هذا أعجبني جدًّا، إذ ألقى الضوء على هذه المسألة بكل جرأة وبسالة. والحق أن الروايات الموجودة في التفاسير بصدد (سجين) هي مما لا يوجد له أثر حتى في الكتب اليهودية.

العجيب أن الله تعالى قد صرح هنا أن السجين كتاب مرقوم، ولكن بعض المفسرين يقولون إن السجين صخرة تحت الأرض السابعة، أو هو خدّ الشيطان. لو لم يذكر الله تعالى هنا شيئا، لجاز لهم أن يقولوا ما يحلو لهم، ولكن إذا كان الله تعالى قد بين معنى السجين، فمن خطئهم الفاحش أن يفسروه بخلاف ما قد بينه الله في القرآن الكريم، خاصة وإن معنى السجين موجود في القواميس وكذلك معنى الكتاب أيضًا؛ إذ ورد في شرح السجين: الدائم والشديد. أما الكتاب فمن معانيه: ما يُكتب فيه، والدواةُ، والتوراةُ؛ والصحيفةُ؛ والفرضُ؛ والحُكمُ؛ والقدرُ. وفي "المصباح": يطلق الكتاب على المنـــزَّل (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني أن حُكمنا في الفجار موجود في كتاب اسمه سجين. تسمى الكتب في الدنيا بأسماء مختلفة، ويخبرنا الله تعالى أن السجل الذي ورد فيه ذكر الفجّار اسمه سجين.. بمعنى أن سجل أعمال الفجار يكون مكتوبا على رأسه أن هؤلاء هم قوم سيعامَلون معاملة شديدة دائمة، ذلك لأن من معاني (السجين) الدائم والشديد.

ولو اعتبرنا الكتاب هنا بمعنى القدر، فالمراد من الآية أن قدرهم الخاص يكون في سجين، أي في حالة دوام وشدة. ثم قال تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.. أي أنه قدرٌ لا رادَّ له. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني أن قضاء الله في حق الفجار، أو حُكم الله في حقهم، أو قدر الله في حقهم، لفي سجين.. أي في سجلّ فيه ذِكرُ قوم عذابهم دائم وشديد.

فلو أخذنا هذه المعاني الواردة في القواميس فلا تبقى هنالك أي حاجة للقول إن خد الشيطان يُشَقّ ليوضع فيه سجلّ أعمال الكفار.. أو لن نكون بحاجة لأن نبحث عن صخرة تحت الأرض حيث أعمال الكفار. هذه الأقوال كلها لغو وعبث.

لقد نُسب إلى قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب أنهم قالوا: السجين صخرة تحت الأرض السابعة، فتزاح ليوضع تحتها كتاب الفجار! ويقولون أن هناك حذفَ مضاف تقديره: السجين مَحَلُّ كتابٍ مرقوم.. أي السجين محلُّ سجلِّ أعمال الكفار. أما أبو عبيدة والمبرّد وهما من كبار الأدباء، والأخفش والزجاج وهما من كبار النحويين، فقد فسروا قوله تعالى ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي لفي حبس وضيق شديد، حيث قالوا: قد جعَل ذلك دليلا على خساسة منـــزلتهم (القرطبي). وفي هذه الحالة يعتبر ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ صفةً لسجين.. أي أن مقام الشدة والحبس هذا في كتاب مرقوم.. أي أنه قدرٌ لا يُرَدّ.

أرى أن المعنى الواضح البين لهذه الآية أن قضاء الفجار في سجين وهو قدر محتوم، أو المعنى أن السجين قرارٌ هو كتاب مرقوم، أي حُكمٌ لا يُرَدّ، أو قدرٌ لا يُردّ.

ومفهوم هذه الآية هو أن الأمة المسيحية التي تتحدث عنها هذه السورة لن تسيء إلى الآخرين في المعاملات فحسب، بل سينتشر بينها الفجور أيضا، وذلك لأنه إذا كثرت سيئة في قوم سُمّوا بها. فباستعمال كلمة (الفجار) قد بين الله تعالى أن هؤلاء القوم لن يكون فيهم عيبُ ظلم الشعوب الأخرى فحسب، بل ستكون بينهم عيوب أخرى كالفسق والفجور، وأن القرار الذي سيؤخذ بشأنهم سيكون شديدًا وذا صبغة دائمة.. أي كما كانت معاملتهم مع الأمم الأخرى قاسية

ودائمة، وانتصارهم ونجاحهم دائمين، كذلك تكون المعاملة الإلهية معهم شديدة ودائمة.

ولهذه الآية معنى آخر أيضًا لم يفطن إليه المفسرون وهو أن القرآن الكريم جزءان؛ جزء إنذاري وجزء تبشيري، فبعض القرآن يشتمل على ذكر هلاك أعداء الحق ودمارهم، وبعضه يتحدث عما قُدر للمؤمنين من رقي ورحمة وبركة من الله تعالى، وكلمتا ﴿سجين﴾ و﴿عليين﴾ اسمان لهذين القِسمين من القرآن، فالعليون قِسم من القرآن فيه ذكر المؤمنون، والسجين قسم منه يحتوي على ذكر الكافرين. وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يمكن أن يفسر بمعنى لطيف للغاية، وهو: كيف يمكن أن لا يهلك هؤلاء القوم في حين أن قرار هلاكهم مسجل في ذلك القسم من القرآن الذي يشمل أنباء عن الدمار الذي سيقع في المستقبل، بما فيها نبأ هلاكهم أيضا؟ علمًا أن الضحاك قال إن المرقوم هو المختوم في لغةِ حِمْيَر، وهذا المعنى ينطبق هنا كل الانطباق، لأن (كتاب مختوم) هو ما لا يتبدل، وقراره نهائي وقطعي غير قابل للتغيير، فكأن هذا الكتاب خاتم الكتب. وهذه الميزة لا توجد في غير القرآن الكريم. لو كانت هذه القرارات مذكورة في كتاب سينسخ مستقبلا لقيل ما دام هذا الكتاب سينسخ مستقبلا، فما الخوف من قراراته؟ ولكن الله تعالى يخبر أن هذا السجين كتاب مرقوم.. أي أن هذه القرارات مسجلة في كتاب لا تبديل له، فقراراته حتمية نهائية. وفي هذه الحالة سيعني الكتاب في قوله تعالى ﴿كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ الحُكم، والمراد أن حُكم هؤلاء الفجار في سجين، أي موجود في القسم الإنذاري من القرآن الكريم، وسيكون لفظ ﴿عليين﴾ بمعنى القسم التبشيري من القرآن حيث ذُكِر رقي المؤمنين.

إذن، فهذا المعنى لطيف وواضح جدًّا وينطبق هنا بكل روعة، لأن رسول الله ﷺ كما هو خاتم النبيين، كذلك فإن القرآن خاتم الكتب، وقراراته قطعية لا تبديل لها، سواء كانت تتعلق بدمار الكفار أو رقي المؤمنين.

هناك أمر لطيف آخر جدير بالتذكر هنا، وهو أن كلمة (ما أدراك) وكلمة (ما يدريك) بمعنى واحد في اللغة العربية، أي: ما تدري، ولكن التدبر في القرآن يكشف لنا أنه قد فرّق بين الكلمتين.

وردت كلمة (ما أدراك) في القرآن في ١٢ موضعا، أما (وما يدريك) ففي ٣ مواضع. لقد وردت (ما أدراك) في الآيات التالية:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾(الحاقة: ٤)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾(المدثر: ٢٨)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾(المرسلات: ١٥)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾(الانفطار ١٨-١٩)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ (المطففين: ٩)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (المطففين: ٢٠)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (الطارق: ٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ (البلد: ١٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ٣)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ٤)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ (القارعة: ١١)

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ (الهُمزة:٦)

وأما (وما يدريك) فوردت في الآيات التالية:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب:٦٤)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى:١٨)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس:٤)

ونرى في هذه الأماكن كلها أنه قد جاء بعد (ما أدراك) اسمٌ دائمًا، أما (ما يدريك) فقد أُشيرَ بعدها إلى فعل أو حادث.

والفرق الآخر أنه حيثما قال الله تعالى (ما أدراك) قد أجاب بعدها عن سؤال، أما (وما يدريك) فوردت بعدها ﴿لعلّ﴾، وتُرِكَ الجواب مبهمًا يحتمل وجوهًا.

فمثلا قال الله تعالى في سورة الحاقة:
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الآيات:٤-٧).
فترى أن الحديث في هذه الآيات وما بعدها عن أمم تعرضت للعذاب كقوم فرعون وثمود وغيرهم، وهكذا بين الله تعالى أن المراد من الحاقة ذلك العذاب الحاسم الذي لم تستطع هذه الأمم القوية ردَّه رغم محاولاتها المستميتة.
أما سورة المدثر فقال الله فيها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(الآيات:٢٨-٣١). فجاء بعد ﴿سقر﴾ بتفسيرها بأنها نار لا تبقي ولا تذر الإنسان، وعليها تسعة عشر ملَكًا.
وقال الله تعالى في سورة المرسلات: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ..... هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ۞ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ (الآيات:١٥-٣٩). فهنا قد أجاب جوابا طويلا فصل فيه يوم الفصل، والمراد من المكذبين مَن يكذّبون بعذاب الله تعالى.
ثم قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ.... يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الآيات: ١٨-٢٠). وهنا أيضا فسّر يوم الدين.
وقال الله تعالى في سورة المطففين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المطففين:٩-١١). فهنا فسر السجين بأنه كتاب أي حُكم لا يبدَّل.
ثم قال الله تعالى في هذه السورة نفسها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الآيات:٢٠-٢٢).. فبيّن أن ﴿عليون﴾ هو حُكم قطعي لا بد أن ينفذ وسيراه المقربون. وكأن ﴿سجين﴾ قضاء سيبكي الكافرون برؤيته، و﴿عليون﴾ قضاءٌ يتوق إليه المؤمنون برؤيته.

ثم قال الله تعالى في سورة الطارق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(الآيتان: ٣-٤).

ثم قال الله تعالى في سورة البلد: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(البلد:١٣-١٧). فبين هنا أن المراد من العقبة تحرير العبد أو إطعام الأيتام والمساكين.

كذلك قال الله تعالى في سورة القدر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(الآيات: ٣-٦). فهنا بيّن أهمية ليلة القدر وعظمتها.

وكذلك قال الله تعالى في سورة القارعة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (الآيات:٤-٦). فبين هنا أن المراد من القارعة هنا حادثة عظيمة.

وقال الله تعالى في سورة القارعة نفسها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (الآيتان:١١-١٢). فهنا فسّر الهاوية بأنها نار مضطرمة.

وقال الله تعالى في سورة الهُمزة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۞ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾(الآيات:٦-٨). ففسّر الحطمة بأنها نار.

إذن، فحيثما قال الله في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أجاب بعدها على سؤال دائمًا، وحيثما قال تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ بدأ الحديث بعدها بلَعَلّ وترك الجواب مبهمًا.

وفيما يلي أمثلة (وما يدريك):

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(الأحزاب:٦٤)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾(الشورى:١٨)

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾(عبس:٤)

هذا الفرق بين استعمال (وما أدراك) و (ما يدريك) لدليل ساطع على فصاحة القرآن الكريم. لا شك أنه لا فرق بين التعبيرين لغةً، إذ معناهما: ما تدري، ولكن السؤال هو: لماذا أشار القرآن في أحدهما إلى عدم علم الناس بشيء ثم زوّدهم بعلمه، وفي التعبير الثاني أشار إلى عدم علمهم بشيء دون أن يُزيل الإبهام بشأنه.

والجواب: قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ماض، وقوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ مضارع، ورغم أن المعاجم لا تفرّق عادة بين التعبيرين من حيث المعنى، إلا أن القرآن قد فرق بين (أدرى) و(يدري)؛ وذلك لأن الماضي يدل على اليقين، إذ إن ما حصل ووقع فلا شك في كونه قطعيًا ويقينيا، أما المضارع فيدل على التوقع فحسب. فالله تعالى قد استخدم تعبير ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ قبل الأمر الذي أراد تبيانه، لأن الماضي يدل على القطع واليقين، بينما استخدم تعبير ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قبل ما أراد أن يظلّ مبهما لبعض الوقت، لأن في المضارع دلالة مبهمة غير يقينية، حيث يفيد الظن فحسب؛ فمثلا عندما نقول: هو يذهب، فليس هذا بخبر يقين إذ لا ندري أيذهب، أم يموت أو يمرض أو يسجن. وهكذا قد راعى الله تعالى بين التعبيرين فرقًا دقيقًا لطيفًا لم يلاحظه الأدباء من قبل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾

التفسير: هذه الآية إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ الوارد في السورة السابقة، حيث نبّه الله هنا أن المرء يجرؤ عادة على ارتكاب هذا الظلم نتيجة عدم اكتراثه لعاقبة أمره أو إنكاره لها. فإذا ظن المرء أنه لن تترتب أية نتيجة على سيئاته، فإنه يقدم المنفعة العاجلة ويزداد شرًّا على الدوام. لو أن كل فرد وشعب تذكّرَ مصيره لم يقع في هذا الظلم قط، ولكن الأسف أن الدنيا لا تنتفع من هذه العبرة اليقينية، فيهلك الأفراد بتصرفاتهم الخاطئة، وتدمّر الأمم نتيجة أعمالها السيئة. إنّ مشاهد هلاك السابقين تكون ماثلة أمام أعينهم، ومع ذلك لا يعتبرون بها، فيهلكون أفرادا وأمما مرة بعد أخرى. كنا نقرأ في القصص أن هناك جبلاً مغناطيسيا في البحار، وكلما اقتربت منه سفينة لم تقاومه وانجذبت إليه بشدة وتحطمت. فيبدو أن عادة تكذيب يوم الدين ونسيان العاقبة أصبحت كهذا الجبل المغناطيسي الأسطوري، فلا تقدر سفينة الحياة الفردية أو القومية على مقاومته، بل لا بد أن تنجذب إليه وتتحطم أخيرا.

الحقيقة أن من التدبير الإلهي لهلاك الظالمين أنهم ينسون يوم الدين، وبالتالي يزدادون ظلمًا، فيتحطمون بصخرة الظلم هذه ويهلكون في نهاية المطاف. لقد جعل الله تعالى جحيم الكافر في قلبه وعقله، ومنها تتهيّأ أسباب هلاكه في النهاية.

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

معتد: اعتدى عليه اعتداء: ظلَمه. (الأقرب)

أثيم: أَثِمَ: عَمِلَ ما لا يحلّ. وأثِمت الناقةُ المشيَ إثمًا: أبطأت (الأقرب). وهذا يعني أن لفظ الإثم في أصله يدل على النقصان، ولفظ الاعتداء يدل على الزيادة.

التفسير: أي إن ما قلنا عن مصير المكذبين بالدين ليس ظلمًا من جانبنا، لأن نسيان يوم الدين لا يحدث صدفةً؛ ثم إننا لم نقصر في تحذيرهم من نتائج أعمالهم، بل أخبرناهم بذلك جيدًا، فإنهم يعلمون أن عواقب تصرفاتهم ستكون وخيمة؛ ومع ذلك ينسون يوم الدين. وهذا يرجع إلى سببين: الاعتداء والإثم.. أي يفعل المرء ما يجب أن لا يفعله، ويهمل ما يجب أن لا يهمله، لأن المعتدي هو من يفعل ما لا يحلّ له، والأثيم من لا يفعل ما يجب عليه فعله. لا شك أن المعنى المعروف للإثم هو الذنب، ولكن إذا وردت كلمة مقابل كلمة أخرى أفادت معناه الخاص عند وضع اللغة. فلو أن كلمة (معتد) وردت هنا وحدها لجاز لنا تفسيرها بمعناه المعروف وهو "الأثيم"، سواء كان هذا الإثم نتيجة زيادة أو تقصير في عمل ما، كذلك لو أن كلمة ﴿أثيم﴾ وردت هنا وحدها لفسرناها بمعنى الذنب سواء كان نتيجة زيادة أو تقصير؛ ولكن هاتين الكلمتين قد وردتا في هذه الآية معًا، فلا بد أن نفسرهما بمفهومين متباينين كالآتي: الإثم يدل على النقصان، والاعتداءُ على الزيادة، حيث بين الله هنا أن المرء يكذب بيوم الدين دائمًا إما نتيجةَ اعتدائه وإما نتيجة إثمه، إذ يرتكب ذنبًا، ثم يخاف أن يؤخذ أو يُفتضح، فيدفعه الخوف إلى خطوة تالية،

فيحاول أن ينسى مصيره فرارًا من وخز الضمير. فكأن التكذيب بيوم الدين خمرٌ تسكر المرء وتجعله غيرَ مبالٍ بمصيره، كما قال الشاعر غالب بالأردية:

مے سے غرض نشاط ہے کس روسیاہ کو

اک گونہ بیخودي مجھے دن رات چاہیئے

(ديوان غالب ص ٦٨)

أي أن فكرة المصير تظل مستولية على قلبي وتذيب نفسي، وفرارًا منها أشرب الخمر لأظل في حالة سكر دائم، فلا تتراءى عاقبتي أمام عيني.

كذلك فإن التكذيب بيوم الدين نوع من الخمر. فعندما يزداد المرء اعتداءً وإثمًا، يحاول نسيان عاقبته، فيتناول الأفيون حينًا، ويشرب الخمر وغيرها من المخدرات من بنجٍ أو حشيش أو قاتٍ حينًا آخر، ليظل في سكر دائم، فلا يتراءى له مصيره الوخيم. وإذا لم يلجأ إلى شرب الخمر والأفيون، فيبدأ في التكذيب بيوم الدين فكريًا، ويقول هذا مجرد وهم ولن يُبعَث أحد بعد الموت، ولن يُسأل عن أعماله أمام الله. إذًا فإنه يسعى إلى إخماد وعيه ومعرفته إما باللجوء إلى السُّكْر المادي، أو باللجوء إلى السُّكْر الفكري، فرارًا من العذاب الذي ينتظره. وهذه حقيقة إذا تدبر فيها المرء ذُهل؛ فهناك الملايين الذين هم مصابون بهذا المرض، وليس ذلك إلا نتيجة الاعتداء والإثم. إنهم يزدادون اعتداء وإثما، وعندما يفكرون في عاقبتهم الوخيمة يسعوْن لأن يتناسوها، فيلجأون إلى حالة من السكر المادي إما بتناول الأفيون أو الخمر أو غيرهما، أو إلى حالة مِن السُكْر الفلسفي بتكذيب يوم الدين قائلين ليس البعث بعد الموت إلا أكذوبة، فيزدادون إثمًا واعتداء. فمثلهم كمثل نمرٍ أكل لسانه: يحكى أن نمرًا كان جائعا، فحكَّ لسانه على صخرة فجرحه، فاستمتع بلذة الدم، فظل يحكّ لسانه بالصخرة ويمتص الدم حتى تآكل لسانُه كله. فهؤلاء القوم أيضا يقعون في الاعتداء والإثم أولاً، فينسون يوم الدين، وبالتالي يزدادون اعتداء وإثمًا، إلى أن تصطدم سفينة أعمالهم بصخرة اعتداءاتهم وتتحطم.